

أسرة السناجيب

أسرة السناجيب

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ٢٠١٢/١٦٦٣

تدمك: ٥ ٨٩ ١٦ ٦٤ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادبي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	الفصل الأول
١٣	الفصل الثاني
١٩	الفصل الثالث
٢٥	الفصل الرابع
٣٣	الفصل الخامس

الفصل الأول

(١) العاصفة

أَقْبَلَ الشِّتَاءُ بِأَمْطَارِهِ وَزَمْهَرِيرِهِ (شِدَّةَ بَرْدِهِ). وَهَبَّتْ عَاصِفَةٌ قَوِيَّةٌ هَوْجَاءُ، فَانْحَنَتْ أَمَامَهَا أَشْجَارُ الْغَابَةِ، حَتَّى تَنْجُو مِنْهَا سَالِمَةٌ ...
وَهَلَّتِ الرِّيحُ تُصَفِّرُ مَرْمَجَرَةً (شَدِيدَةَ الصِّيَاحِ) مُنْذِرَةً بِالْوَيْلِ (مُتَوَعِّدَةً بِوُقُوعِ الشَّرِّ وَحُلُولِ الْعَذَابِ) وَالذَّمَارِ (الْهَلَاكِ).

وَصَرَخَتْ صِغَارُ السَّنَاجِبِ — وَهِيَ فِي عُشِّهَا الَّذِي اتَّخَذَتْهُ فِي أَعْلَى شَجَرَةِ الشُّوْحِ (وَهِيَ شَجَرَةٌ أَغْصَانُهَا عَلَى هَيْئَةٍ مَخْرُوطَةٍ) — وَتَعَالَتْ أَصْوَاتُهَا شَاكِئَةً رَاهِبَةً (خَائِفَةً):
«أَدْرِكُنَا — يَا أَبَانَا — فَقَدْ قَارَبْنَا الْهَلَاكَ، وَأَشْرَفْنَا عَلَى التَّلَفِّ، وَأَوْشَكَتِ الشَّجَرَةُ أَنْ تَهْوِيَ (تَسْقُطَ) بِنَا إِلَى الْأَرْضِ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَوْتِ إِلَّا لَحْظَاتٌ يَسِيرَةٌ (زَمَنٌ قَلِيلٌ)».

(٢) فَرَزُ السَّنَاجِبِ

فَقَالَ أَبُو السَّنَاجِبِ لِأَوْلَادِهِ الثَّلَاثَةِ: «هَدُّنَا مِنْ رَوْعِكُمْ (خَفِّفُوا مِنْ فَرَعِكُمْ)، فَإِنَّ هَذِهِ الْعَاصِفَةَ الْهُوْجَاءَ (الرِّيحَ الْقَوِيَّةَ الَّتِي تَهْبُ هُنَا وَهُنَالِكَ، فَتَقْتَلِعُ مَا أَمَامَهَا) لَنْ تَلْبَثَ — عَلَى شِدَّتِهَا — إِلَّا وَقْتًا يَسِيرًا، ثُمَّ لَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ».



وكان «اللامع» و«الساطع» و«البراق» يكادون يَهْلِكُونَ مَنْ فَرَطَ الْفَزَعِ، (مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْجَزَعِ) وَيَلْتَصِقُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، لِيَتَوَارَوْا (لِيَسْتَتِرُوا) خَلْفَ أَبِيهِمْ وَهُمْ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، شَقَرُ (أَلْوَانُهُمْ بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالصُّفْرِ).

أَمَّا أَبُوهُمُ الشَّيْخُ «قَنْزَعَةُ»؛ فَهُوَ سَنَجَابٌ حَمِيلُ الطَّلَعَةِ، أَذْكَنُ (يَمِيلُ لَوْنُهُ إِلَى السَّوَادِ)، كَثِيفُ الْقَصَّةِ (كَثِيرُ الشَّعْرِ فِي مُقَدِّمَةِ رَأْسِهِ). وَقَدْ بَدَّلَ الشَّيْخُ جُهْدَهُ فِي تَسْكِينِ رُوعِهِمْ (تَنَبَّيْتُ قَلْبِهِمْ)، وَتَهْدِئَةِ ثَائِرَتِهِمْ (ضَجَّتِهِمْ وَهَيَاجِهِمْ)، وَتَأْمِينِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ. وَقَالَ لَهُمْ، فِيمَا قَالَ: «لَا عَلَيَكُمْ (لَنْ يُصِيبَكُمْ أَدَى)، يَا بَنِي الْأَعْزَاءِ، فَإِنَّ الْعَاصِفَةَ — عَلَى شِدَّتِهَا — لَا تَلْبَثُ وَقْتًا طَوِيلًا. وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا الصَّبْرُ الْجَمِيلُ!»

وَلَمْ يَكَدْ «قَنْزَعَةُ»: أَبُو السَّنَاجِبِ، يُتِمُّ قَوْلَهُ، حَتَّى هَبَّتْ (ثَارَتْ وَهَاجَتْ) عَلَى الشَّجَرَةِ رِيحٌ صَرَصَرٌ عَاتِيَةٌ (قَوِيَّةٌ عَنِيفَةٌ)، أَوْشَكَتْ أَنْ تَقْتَلِعَهَا مِنْ جُذُورِهَا؛ (كَادَتْ تَنْزِعُهَا مِنْ أَصُولِهَا) فَانْقَلَبَ السَّنَاجِبُ الْأَرْبَعَةُ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَخَذُوا يَصْرُخُونَ فِي عُسِّهِمْ مَدْعُورِينَ (خَائِفِينَ).

(٣) هُدُوءُ الْعَاصِفَةِ

ثُمَّ خَفَّتِ الْعَاصِفَةُ (قَلَّتْ شِدَّتُهَا) شَيْئًا فَشَيْئًا، وَسَكَتِ الرِّيحُ الْعَاتِيَةُ (الشَّدِيدَةُ الْعَصْفِ، الَّتِي جَاوَزَتْ حَدَّ هُبُوبِهَا).

فَرَفَعَتْ شَجَرَةَ الشُّوحِ الْعُجُوزُ رَأْسَهَا الَّذِي زَعَزَعَتْهُ الصَّدَمَاتُ الْعَنِيفَةُ وَتَطَلَّعَتْ إِلَى بَنَاتِ جِنْسِهَا — مِنْ شُجَيْرَاتِ الشُّوحِ؛ فَهَالَهَا مَا رَأَتْهُ، وَحَزَنَهَا مَصَارِعُ الشُّجَيْرَاتِ الَّتِي اقْتَلَعَتْهَا الْعَاصِفَةُ الْهَوْجَاءُ، وَقَذَفَتْ بِهَا (رَمَتْهَا) عَلَى الْأَعْشَابِ!
وقال «قُنْزَعَةُ» أَبُو السَّنَاجِبِ لِأَبْنَائِهِ: «يَا لَهَا مِنْ عَاصِفَةٍ مُفْزَعَةٍ، هَائِلَةٍ مُرَوِّعَةٍ! لَقَدْ عِشْتُ عُمُرًا طَوِيلًا — يَا أَوْلَادِي — وَأَصْبَحْتُ شَيْخًا طَاعِنًا فِي السَّنِّ، وَرَأَيْتُ فُصُولَ الشِّتَاءِ مُتَعَاقِبَةً (مُتتَالِيَةً) فِي هَذِهِ الْغَابَةِ، فَلَمْ أَر — لِهَذِهِ الْعَاصِفَةِ الْهَوْجَاءِ — مَثِيلًا. وَلَقَدْ كَانَ مِنْ حَسَنِ حِظِّنَا أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ الَّتِي نَاوِي إِلَيْهَا (نَسْكُنُهَا) مَتِينَةٌ قَوِيَّةٌ.»

(٤) طَعَامُ السَّنَاجِبِ

فَقَالَ لَهُ وَلَدُهُ «الْلَامِعُ»، وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ أَلَمُ الْجُوعِ: «أَيُّنَ زَادُنَا (طَعَامُنَا)، يَا أَبَتَاهُ؟ فَمَا أَظْنُهُ إِلَّا تَفَرَّقَ، وَقَذَفَتْ بِهِ الرِّيحُ، إِلَى حَيْثُ لَا نَعْلَمُ!»
فَأَجَابَهُ «قُنْزَعَةُ»: «لَا عَلَيكَ — يَا وَلَدِي — (لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، وَلَا تَهْتَمُّ)، وَلَا تَخَشَّ عَلَى زَادِنَا الصِّيَاحِ؛ فَإِنَّ أَبَاكَ شَيْخٌ مُتَبَصِّرٌ (عَلِيمٌ عَارِفٌ) بَعِيدُ النَّظَرِ، يُقَدِّرُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ (يَحْسِبُ لَهَا حِسَابَهَا). وَقَدْ أَعَدَدْتُ عُدَّتِي — فِي فَصْلِ الْخَرِيفِ — لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْمُفَاجَأَةِ، فَخَبَأْتُ زَادَنَا — مِنَ الْجُوزِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ — تَحْتَ سِيَاجِ الْأَعْشَابِ (تَحْتَ سُورِهَا الْمُحِيطِ)، حَتَّى لَا تُبَدِّدَهُ (لَا تُفَرِّقَهُ) الْعَوَاصِفُ، وَلَا تَذَرُوهُ (لَا تُطَيِّرَهُ) الرِّيَّاحُ.»
فَاطْمَأَنَّ السَّنَاجِبُ عَلَى زَادِهَا، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تُعْنَى (تَهْتَمُّ) بِتَنْسِيقِ هِنْدَامِهَا، وَتَنْظِيمِ فِرَائِهَا وَأَذْنَابِهَا الَّتِي تَشَعَّتْ (انْتَفَشَ شَعْرُهَا). وَلَمْ تَلْبُثْ — بَعْدَ لَحْظَةٍ قَصِيرَةٍ — أَنْ أَعْمَلَتْ أَلْسِنَتَهَا اللَّطِيفَةَ الصَّغِيرَةَ فِي شَعْرِهَا، حَتَّى نَسَقَتْهُ (نَظَّمَتْهُ)، وَأَصْلَحَتْ مَا تَشَعَّتْ (مَا تَفَرَّقَ) مِنْهُ.

(٥) بَابُ الْعُشِّ

وَصَاحَ «الْبَرَّاقُ» مَذْعُورًا (خَائِفًا)، وَهُوَ مُنْزَوٍ (مُخْتَفٍ) فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْعُشِّ، وَقَدْ انْتَضَمَتْهُ الرَّجْفَةُ (شَمِلَتْهُ الرُّعَاشُ)، مِنْ شِدَّةِ الْبُرْدِ. قَالَ: «مَا أَشَدَّهُ بَرْدًا، وَمَا أَقْسَاهُ زَمْهَرِيرًا!»

فَقَالَ أَبُو السَّنَاجِبِ «قُنْزَعَةُ»: «صَدَقْتَ يَا «بَرَّاقُ»، فَقَدْ اشْتَدَّ الْبَرْدُ، وَلَا بُدَّ (لَا مَفَرَّ) لَنَا مِنْ إِغْلَاقِ بَابِ الْعُشِّ (إِقْفَالِهِ) عَلَيْنَا، حَتَّى نَصِيبَ (نَنَالَ) مَا نَرْجُو مِنَ الدَّفْعِ (السُّخُونَةِ) وَالْحَرَارَةِ.»

وَجَمَعَ «قُنْزَعَةُ» قَبْضَةً مِنَ الْحَشَائِشِ الْيَابِسَةِ، بِيَدَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ، فَمَلَأَ بِهَا فَاةً، ثُمَّ لَفَظَهَا (رَمَى بِهَا وَطَرَحَهَا) نَافِخًا بِقُوَّةٍ، فَسَدَّ مَنَفَذَ الْعُشِّ. ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ وَقَيْتُكُمْ غَائِلَةَ الْبَرْدِ (شَدَّتْهُ الْمُهِلَكَةُ)؛ فَالْبُتُوَا — أَيُّهَا الصَّغَارُ الْأَعْرَاءُ — وَادِيعِينَ (أَقِيمُوا مُرْتَاحِينَ)، وَنَامُوا آمِنِينَ.»

(٦) نَشِيدُ النَّوْمِ

وَاقْتَرَبَ «قُنْزَعَةُ» مِنْ بَنِيهِ، وَالتَفَّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مُتَحَوِّيًا (مُسْتَدِيرًا عَلَى نَفْسِهِ مُتَجَمِّعًا) كَالْكُرَّةِ، وَأَصْبَحَ فَوْهُ (فَمُهُ) عِنْدَ بَطْنِهِ، شَأْنُ السَّنَاجِبِ حِينَ تَتَأَهَّبُ لِلنَّوْمِ. ثُمَّ سَادَ الْعُشُّ سُكُونٌ عَمِيقٌ.

فَهَلْ تَحْسَبُونَهُمْ (تَظُنُّونَهُمْ) — أَيُّهَا الْقُرَّاءُ الْأَعْرَاءُ — قَدْ اسْتَسْلَمُوا لِلنَّوْمِ؟ كَلَّا. فَإِنَّ عَيْنَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ كَانَتَا تَبْرُقَانِ فِي الظَّلَامِ، وَذَنْبًا يَرْتَجِفُ أَنَا بَعْدَ آخَرٍ (ذِيلًا يَرْتَعِشُ حِينَا بَعْدَ حِينٍ).

وَمِنْ عَادَةِ السَّنَاجِبِ أَنْ تَثَبَّ بَيْنَ الْغُصُونِ، قَافِزَةً مِنْ فَرْعٍ إِلَى آخَرٍ، وَهِيَ تُحِبُّ الْوُثْبَ وَالْقَفْزَ حَبًّا جَمًّا (كَثِيرًا). لِهَذَا بَرَقَتْ (لَمَعَتْ) عَيْنَا ذَلِكَ السَّنَجَابِ الصَّغِيرِ: «الْبَرَّاقُ». وَلَكِنَّهُ — هُوَ وَأَحْوَاهُ — قَدْ أَتَرَوْا (اخْتَارُوا) الصَّمْتَ، وَأَخْلَدُوا (ارْتَكَنُوا) إِلَى السُّكُونِ، تَلْبِيَةً لِأَمْرِ آبِيهِمْ.

وَمَرَّتْ لَحَظَاتٌ قَصِيرَةٌ، ثُمَّ عَجَزَ «الْبَرَّاقُ» عَنْ مُعَالَبَةِ شَوْقِهِ إِلَى الْوُثْبِ (الْقَفْزِ)؛ فَانْحَرَطَ (أَسْرَعَ) فِي الْبُكَاءِ، وَقَالَ لِأَبِيهِ فَجَاءَهُ: «لَقَدْ أَعْجَزَنِي أَنْ أَظْفَرَ بِالنَّوْمِ، فَلَيْسَ لِي مِنْ سَبِيلٍ إِلَيْهِ، يَا أَبَتَاهُ.»

فَرَأَى «قُنْزَعَةُ» (رَقَّ) لِحَالِ وَلَدِهِ «الْبَرَّاقِ»، وَقَالَ لَهُ حَانِيًا (عَاطِفًا)، مُشْفِقًا (خَائِفًا): «إِنَّ (اقْتَرَبَ) مِنِّي — يَا وَلَدِي الْعَزِيزَ — وَالتَّصِقْ بِي، فَإِنِّي مُغْنِيكَ أَنْشُودَةً (أَغْنِيَةً) جَمِيلَةً، لَعَلَّكَ تَنَامُ.»

ثُمَّ أَنْشَأَ يَغْنِيهِ نَشِيدَ النَّوْمِ، الَّذِي تَحَفَّظُهُ أَمَّاتُ السَّنَاجِبِ جَمِيعًا، وَتَلَقَّنُهُ أَوْلَادُهُنَّ (تَفْهَمُهُنَّ) إِيَّاهُ، وَتَقُولُهُ لَهُنَّ مُشَافَهَةً، لِيُنْشِدْنَهُ، اسْتِجْلَابًا لِلنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، فَقَالَ، فِي صَوْتٍ عَذْبٍ، يَفِيضُ رِقَّةً وَحَنَانًا:

نَمْ أَمِنَّا يَا «سَاطِعُ»	نَمْ أَمِنَّا يَا «لَامِعُ»
وُقِيْتُمْ كُلُّ أَلَمٍ!	يَا أَيُّهَا «الْبَرَّاقُ»، نَمْ
وَسُعِدَتْ أَحْلَامُكُمْ	وَأَشْرَقَتْ أَيَّامُكُمْ
بِكُلِّ أَسْبَابِ الْهَنَا	وَسَاعَفَتْكُمْ الْمُنَى
نَمْ أَمِنَّا يَا «سَاطِعُ»	نَمْ أَمِنَّا يَا «لَامِعُ»
وُقِيْتُمْ كُلُّ أَلَمٍ	يَا أَيُّهَا «الْبَرَّاقُ»، نَمْ
وَنَلْتُمْ رَجَاءَكُمْ	غَلَبْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ
أَمَّا لَنَا بِقُرْبِكُمْ	وَحَقَّقَ الدَّهْرُ بَكُمْ
نَمْ أَمِنَّا يَا «سَاطِعُ»	نَمْ أَمِنَّا يَا «لَامِعُ»
وُقِيْتُمْ كُلُّ أَلَمٍ	يَا أَيُّهَا «الْبَرَّاقُ»، نَمْ
وَفَارِقُوا أَحْزَانَكُمْ	فَأَغْمِضُوا أَجْفَانَكُمْ
وَمِنْ مَكَايِدِ الْعِدا	سَلِمْتُمْ مِنَ الرَّدَى
نَمْ أَمِنَّا يَا «سَاطِعُ»	نَمْ أَمِنَّا يَا «لَامِعُ»
وُقِيْتُمْ كُلُّ أَلَمٍ	يَا أَيُّهَا «الْبَرَّاقُ»، نَمْ
بِالنَّوْمِ فَهُوَ مَغْنَمٌ	نَامُوا جَمِيعًا وَانْعَمُوا
وَمُتَّعَةٍ مُوَافِيَةٍ	فِي صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ
نَمْ أَمِنَّا يَا «سَاطِعُ»	نَمْ أَمِنَّا يَا «لَامِعُ»
وُقِيْتُمْ كُلُّ أَلَمٍ	يَا أَيُّهَا «الْبَرَّاقُ»، نَمْ
رَجَاؤُنَا — وَدُمْتُمْ	سَلِمْتُمْ — فَأَنْتُمْ

وظَلَّ «قُنْزَعَةٌ» يُرْجِعُ (يُرِدُّدُ) هَذِهِ الْأَنْشُودَةَ الْجَمِيلَةَ، وَصَوْتُهُ يَخْفُتُ (يَسْكُنُ أَوْ: يَسْكُتُ) شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى أَسْلَمَ أَوْلَادُهُ أَجْفَانَهُمْ لِلنَّوْمِ، وَرَاحَ مَعَهُمْ فِي سُبَاتِ (نَوْمٍ) عَمِيقٍ.

الفصل الثاني

(١) صَيْحَةُ الْبَرَّاقِ

وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنَامُوا طَوِيلًا، فَقَدْ اسْتَيْقَظَ «الْبَرَّاقُ» فَرِعًا مَرْعُوبًا، وَصَاحَ (صَرَخَ) — مِنْ فَرَطِ الْخَوْفِ — قَائِلًا: «لَقَدْ سَمِعْتُ حَرَكَةً خَارِجَ الْعُشِّ.»
فَاسْتَيْقَظَتْ أَسْرَةُ السَّنَاجِبِ، وَوَقَفَتْ تَتَسَمَّعُ ذَلِكَ الصَّوْتِ، وَحَدَقَتْ (شَدَدَتْ النَّظَرَ) إِلَيْهِ، وَأَرْهَفَتْ آذَانَهَا.
ثُمَّ قَالَ «الَّلَامِعُ» مُجْمَعًا (غَيْرَ رَافِعِ صَوْتِهِ، وَلَا مُبِينِ كَلَامِهِ) وَقَدْ أَسْنَدَ رَأْسَهُ إِلَى فَرْعِ الشَّجَرَةِ: «لَقَدْ صَدَقَ «الْبَرَّاقُ» — يَا أَبَتَاهُ — فَإِنِّي أَسْمَعُ صَوْتَ أَقْدَامٍ تَتَسَلَّقُ جِذْعَ الشَّجَرَةِ.»
فَذِعَرَ «الْبَرَّاقُ» (خَافَ) — وَهُوَ أَجْبَنُ أَبْنَاءِ أَبِيهِ — وَأَخْفَى رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ مُنْزَعَجًا: «أَه ... يَا لَهَا كَارِثَةٌ (نَكْبَةٌ) مُفَزَّعَةٌ!»

(٢) نَصِيحَةُ السَّنَجَابِ

فَقَالَ أَبُو السَّنَاجِبِ «قُنْزَعَةٌ»: «مَا بَالُ الْخَوْفِ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى نَفُوسِكُمْ، أَيُّهَا الصِّغَارُ الْأَعْزَاءُ! إِنَّ الصَّوْتَ — فِيمَا يَبْدُو لِي — قَدْ ابْتَعَدَ. فَافْتَحُوا بَابَ الْعُشِّ، لِنَسْتَجْلِيَ الْأَمْرَ (لِنَعْرِفَهُ بَوْضُوحٍ)، وَنَرَى: مَنِ الطَّارِقُ (مَنِ الزَّائِرُ لَيْلًا). فَإِذَا لَاحَ لِي أَيُّ خَطَرٍ، أَشَرْتُ إِلَيْكُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ فُورِكُمْ (تَوًّا)، لِنَتَّقِفْزُوا إِلَى الشَّجَرَةِ الْمَجَاوِرَةِ الْأُخْرَى. وَلَكِنْ لَا تَنْسُوا

— إِذَا قَفَرْتُمْ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ — أَنْ تَبْسُطُوا أَذْنَابَكُمْ — كَمَا عَلَّمْتُكُمْ — حَتَّى لَا تَهْوُوا (لَا تَسْقُطُوا) إِلَى الْأَرْضِ..»

فَقَالُوا لَهُ: «كَلَّا، كَلَّا. لَا تَخْرُجْ — يَا أَبَتَاهُ — فَلَسْنَا آمِنِينَ مِنَ الْأَخْطَارِ، إِذَا خَرَجْتَ! وَلَيْسَ لَنَا مَلَاذُ (مَلَجَأُ) سِوَاكَ، فَالْبِثْ مَعَنَا، فَإِنَّا نَسْتَوْجِسُ (نَشْعُرُ بِالْوَحْشَةِ وَالْخَوْفِ) لَغَيْبَتِكَ!»

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «الزَّمُوا الصَّمْتَ أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ، وَلَا تُفْسِدُوا عَلَيَّ تَدْبِيرِي، فَإِنِّي أَبْعُدُ مِنْكُمْ نَظْرًا، وَأَسَدُ (أَصُوبُ) رَأْيًا، وَأَوْفِرُ (أَكْثَرُ) تَجَرِبَةً!»

(٣) زائرٌ مُفاجئٌ

وَحَرَجَ «قُنْزَعَةُ» فَجَزَعَ (فَزَعَ) أَبْنَاؤُهُ، وَانْتِظَمَتْهُمْ الرَّجْفَةُ (سَرَى فِي أَجْسَادِهِمُ الرُّعَاشُ). وَبَعْدَ قَلِيلٍ سَمِعُوا حَرَكَةً تَدْنُو (تَقْتَرِبُ) مِنَ الْعُشِّ، فَاشْتَدَّ فَرَعُهُمْ. ثُمَّ رَأَوْا شَيْئًا يَدْنُو مِنَ الْبَابِ، فَكَادَتْ تَحْمُدُ أَنْفَاسُهُمْ مِنْ فَرَطِ الذَّعْرِ (كَادُوا يَمُوتُونَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ)، وَتَحَيَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ، فَلَمْ يَعْرِفُوا: كَيْفَ يَصْنَعُونَ؟ وَلَيْسَ مَعَهُمْ أَبُوهُمْ، فَيَذْفَعُ عَنْهُمْ غَائِلَةَ الْمُغِيرِينَ (فَتَكَ الْهَاجِمِينَ)، وَكَيْدَ الْمُعْتَدِينَ. ثُمَّ أَطَلَّ عَلَيْهِمْ رَأْسُ حَيَوَانٍ، فَعَقَدَ الذَّعْرُ أَلْسِنَتَهُمْ (رَبَطَهَا الْخَوْفُ وَقَيْدَهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعِ الْكَلَامَ). وَأَسْرَعَ السَّنَاجِبُ مُنْزَوِينَ (مُخْتَبِئِينَ) فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْعُشِّ. وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَقِرُّ الْمَقَامُ بِهَذَا الزَّائِرِ الْمُخُوفِ الرَّاعِبِ (الْمُفْزِعِ)، حَتَّى قَالَ مُتَعَجِّبًا: «أَتَرَى هَذَا الْعُشَّ خَالِيًا مِنْ سَاكِنِيهِ؟!»

فَحَيَّلَ إِلَى صِغَارِ السَّنَاجِبِ أَنَّ أَخْرَجَتْهُمْ قَدْ قَرَبَتْ (ظَنُّوا أَنَّ أَعْمَارَهُمْ دَنْتَ وَأَشْرَفَتْ عَلَى نَهَايَتِهَا)، وَأَطْبَقُوا أَجْفَانَهُمْ (أَغْمَضُوا عُيُونَهُمْ) مَذْعُورِينَ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلْيَأْسِ مَغْلُوبِينَ.

(٤) أُمُّ رَاشِدٍ

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، دَخَلَ «قُنْزَعَةُ» عُشَّهُ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ — فِي الْخَارِجِ — جَوْلَتَهُ (طَوَفَتَهُ) بَاحِثًا عَنْ ذَلِكَ الطَّارِقِ. ثُمَّ قَالَ لِبَنِيهِ: «لَمْ أَرِ أَحَدًا خَارِجَ الْعُشِّ أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ؛ فَطِيبُوا نَفْسًا، وَلَا يَدَاخِلَنَّكُمْ (لَا يُصِيبَنَّكُمْ) الرَّوْعُ (الْفَزَعُ) وَ...»

فَقَاطَعَهُ صَوْتُ ذَلِكَ الزَّائِرِ قَائِلًا: «سَعِدَ يَوْمُكَ، يَا بَنَ عَمَّ!»
فَدِهَشَ «قُنْزَعَةُ» وَتَلَفَّتْ حَوْلَهُ، لِإِرَى: مَنْ يُحْيِيهِ.

فَأَبْصَرَ — بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَابِ — جِسْمًا صَغِيرًا، فِي لَوْنِهِ دُكْنَةٌ (سَوَادٌ).
فصاح مسرورًا: «مَرْحَبًا بِكِ يَا بِنْتَ الْعَمِّ. كَيْفَ أَنْتِ يَا «أُمُّ رَاشِدٍ»؟
أَتَدْرِينَ كَيْفَ أَرَزَعَجْتَ أَبْنَائِي — أَيُّهَا الْفَارَةُ الْعَزِيزَةُ — بِهَذِهِ الزَّوْرَةِ الْمَفَاجِئَةِ؟»

(٥) اعتذارُ الْفَارَةِ

فَأَجَابَتْهُ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «عُذْرًا وَصَفْحًا، يَا ابْنَ عَمِّ، شَدَّ مَا يُحْزِنُنِي أَنَّي سَبَبْتُ لَكُمْ هَذَا
الانزعاج! فهل أَنْتَ غَافِرٌ لِي هَذِهِ الْهَفْوَةَ؟ وهل أَنْتَ مُتَفَضِّلٌ عَلَى بِنْتِ عَمِّكَ، فَمُضِيفُهَا —
فِي عَشْكَ — زَمَنًا قَصِيرًا؛ لَعَلِّي أُصِيبُ شَيْئًا مِنَ الدَّفْعِ، فَقَدْ كَادَ الْبَرْدُ يُهْلِكُنِي؟!...
هَئِنَا ذِي أَرَى أَبْنَاءَكَ الصَّغَارَ، فَمَا أَجْمَلَ شَكْلَهُمْ وَأَبْهَجَ مَرَأَهُمْ!
ادْنُوا (اقْتَرِبُوا) مِنِّي، أَيُّهَا الْأَعْزَاءُ.
أَلَا تَعْرِفُونَ «أُمُّ رَاشِدٍ» — بِنْتُ عَمِّكُمْ — الْمُخْلِصَةَ الْوَفِيَّةَ؟»

(٦) دَهْشَةُ السَّنَاجِبِ

فَنَظَرَ إِلَيْهَا «الَّلَامِعُ» وَ«السَّاطِعُ» وَ«الْبَرَّاقُ»، وَقَدْ سُرِّي عَنْهُمْ، وَدَهَبَ بَعْضُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ
مِنَ الرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ. وَحَلَّتِ الدَّهْشَةُ مَكَانَ الْفَزَعِ، إِذْ عَجِبُوا (دَهَشُوا) مِنْ تِلْكَ الْفِتَاةِ
الصَّغِيرَةِ ذَاتِ الرَّدَائِ (صَاحِبَةِ التَّوْبِ) الرَّمَادِيِّ، الَّتِي تُحَدِّثُهُمْ — فِي طَلَاقَةٍ وَسُرْعَةٍ —
وَهِيَ تَغْمِزُ بَعَيْنَيْهَا، وَتُقَطِّبُ (تُجَمِّعُ) أَنْفَهَا الْمُحْدَوِّبَ (الْخَارِجَ وَسَطَهُ)!

(٧) بَيْتُ السَّنَجَابِ

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» قَائِلَةً: «تَقَبَّلْ تَهْنِئَاتِي — يَا بَنَ عَمِّ — بِهَذَا الْمَسْكَنِ الْبَدِيعِ الَّذِي
تَقُطِنُهُ (تَسْكُنُهُ).»



فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «صَدَقْتَ — يَا «أُخْتُ يَرْبُوعَ — فَقَدْ بَدَّلْتُ جُهْدًا عَظِيمًا فِي تَنْسِيقِ
هَذَا الْعُشِّ (تَنْظِيمِهِ)، وَوَضَعْتُ هَذِهِ الْأَغْصَانِ الصَّغِيرَةَ كُلَّهَا، وَتَرْتِيبَهَا فِيهِ.»
فَرَفَعَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» رَأْسَهَا قَائِلَةً: «مَا أَجْمَلَ هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي بَنَيْتَهُ، وَرَفَعْتَ سَمَكُهُ
(سَقْفَهُ) وَأَقَمْتَهُ! وَمَا كَانَ أَجْدَرَ الْفَأَرَ أَنْ تَهْتَدِيَ بِكَ، وَتَحْتَدِيكَ (تَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِكَ) فِي
هَنْدَسَةِ بَيْتِهَا! وَمَا أَعْجَبَ مَا وَفَّقْتَ إِلَيْهِ مِنْ فُنُونِ الْهَنْدَسَةِ، إِذْ تَفْتَحُ بَابَ مَسْكِكَ فِي
الشَّرْقِ، لِتَنْفُذَ إِلَيْكَ أَشْعَةَ الشَّمْسِ، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي تَطْلُعُ فِيهَا عَلَى الْكُونِ! آه، لَقَدْ ثَرَّرْتُ
(أَطْلَتُ التَّكَلَّمَ) — يَابْنَ عَمَّ — بِلَا طَائِلٍ (بِغَيْرِ فَائِدَةٍ). وَنَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَكَ — بِادِي الْأَمْرِ
— كَيْفَ أَنْتَ؟ وَلَعَلَّ عُذْرِي فِي هَذِهِ الثَّرَثَرَةِ أَنَّنِي لَمْ أَقْبَلُ أَحَدًا مِنْ أَصْدِقَائِي مُنْذُ زَمَنْ
طَوِيلٍ. وَقَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَى الْحَدِيثِ وَالسَّمَرِ، وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنْ لَقَيْتُكَ مُفَاجَأَةً،
فَقَدْ كُنْتُ أَغْتَسِفُ الطَّرِيقَ (أَمْشِي فِيهِ بِلَا دِرَابَةٍ)، سَائِرَةً عَلَى غَيْرِ هُدًى. وَعَنْ (خَطَرَ) لِي
أَنْ أَتَسَلَّقَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ، وَأَنَا لَا أَذْرِي، إِلَى أَيِّ مَكَانٍ أَقْصِدُ؟ وَلَمْ أَعْرِفْ أَنَّ حَظِّي السَّعِيدَ
سَيَهْدِينِي إِلَيْكَ!»

(٨) عُشُّ الْفَأَرَةِ

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «وَكَيْفَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَخْرُجِي وَحَدَكِ مِنْ عُشِّكَ، فِي هَذَا الْوَقْتِ، يَا «أُخْتُ
يَرْبُوعَ»؟ وَكَيْفَ أَقْدَمْتِ عَلَى احْتِمَالِ آلَامِ الْبَرْدِ الْقَارِسِ (الشَّدِيدِ)، عَلَى غَيْرِ عَادَتِكَ، يَابْنَةُ
عَمَّ؟»

فَطَاطَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» رَأْسَهَا، وَمَسَحَتْ بِيَدَيْهَا فَاها (فَمَهَا) الصَّغِيرَ، ثُمَّ قَالَتْ مَحْزُونَةً: «آه، يَا بَنَ عَمِّ، بِرَبِّكَ لَا تُدَكِّرْنِي بِعُشِّي، وَلَا تُحَدِّثْنِي عَنْهُ أَيَّ حَدِيثٍ؛ فَإِنِّي لَا أَذْكَرُ الْعُشَّ إِلَّا ذَكَرْتُ مَعَهُ مِقْدَارَ شَقَائِي وَتَعَاسَتِي، وَسُوءِ حَظِّي. لَقَدْ كَانَ عُشِّي — عَلَى عِلَاتِهِ (عَلَى أَيِّ حَالٍ فِيهِ) — خَيْرَ نُمُودَجٍ لِمَسَاكِنِ الْفَارِ. وَكَانَتْ فَأْرُ الْغَابَةِ جَمِيعًا تُزْهِى (تَعْجَبُ) بِهِ، وَتُتَنِّي عَلَيْهِ. وَقَدْ كُنْتُ بَنِيَّتَهُ — يَا بَنَ عَمِّ — فِي آخِرِ جَذَعِ بَلُوطَةٍ نَاشِئَةٍ. وَحَفَرْتُ — بِالْقُرْبِ مِنْهُ — مُسْتَوْدَعَ زَادِي، وَمَخْزَنَ مَوْنَتِي. وَمَلَأْتُهُ بِكُلِّ مَا أَشْتَهِيهِ مِنْ أَطَايِبِ الْمَأْكَلِ، وَلَذَائِذِ الْأَطْعِمَةِ.»

(٩) مَأْسَاةُ «أُمِّ رَاشِدٍ»

وَكَانَ السَّنَاجِبُ الْأَرْبَعَةُ يُرْهِفُونَ آذَانَهُمْ، مُنْصِتِينَ إِلَى حَدِيثِ «أُمِّ رَاشِدٍ». وَقَدْ حَزِنُوا لَشُكْوَاهَا، وَتَأَلَّمُوا لِبَيْئَتِهَا أَشَدَّ الْأَلَمِ (تَوَجَّعُوا لِحَزْنِهَا أَشَدَّ الْوَجَعِ).

فَقَاطَعَهَا «الَّلَامِعُ» قَائِلًا: «شَدَّ مَا أَحْزَنْتُنَا شُكُوكُ، يَا «أُمُّ رَاشِدٍ»؟»
فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» مُسْتَأْنِفَةً حَدِيثَهَا: «اصْغُوا إِلَى بَقِيَّةِ الْقِصَّةِ، فَإِنَّهَا لَمَّا تَنْتَه (لَمْ تَنْتَه بَعْدُ)، يَا أَبْنَاءَ عَمِّ. وَهِيَ مَأْسَاةٌ (حَادِثَةٌ) مُفْرَعَةٌ. وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنْكُمْ سَتَدَهْشُونَ إِذَا قَرَرْتُ لَكُمْ أَنَّنِي — مُنْذُ زَمَنٍ قَلِيلٍ — كُنْتُ وَادِعَةً أَمَنَةً فِي عُشِّي، وَبَيْنَا أَنَا مُصْغِيَّةٌ (مُسْتَمِعَةٌ) إِلَى غِنَاءِ الرِّيحِ، وَقَدْ تَهَيَّأْتُ لِلْكَرَى (اسْتَعَدَدْتُ لِلنَّوْمِ)، وَكَدْتُ أُغْمِضُ عَيْنَيَّ؛ إِذْ سَمِعْتُ جَلْجَلَةً (فَرْقَعَةً)، وَقَعْقَعَةً هَائِلَةً تَصُمُّ الْأَذَانَ، فَأَسْرَعْتُ — هَارِبَةً — لَعَلِّي أَنْجُو بِنَفْسِي. وَلَمْ أَكُذْ أَفْعَلْ حَتَّى أَبْصَرْتُ شَجَرَةَ الْبَلُوطِ تَهْوِي سَاقِطَةً عَلَى الْأَرْضِ، فَسَمِعْتُ لِدَوِيَّهَا ضَجَّةً، كَأَنَّهَا قَصْفُ الرُّعُودِ (صَوْتُهَا الشَّدِيدُ)! وَلَوْ أَنَّنِي تَأَخَّرْتُ لَحَظَّةً وَاحِدَةً عَنِ الْهَرَبِ، لَهَلَكْتُ مِنْ فَوْرِي. آه... يَا لَهَا سَاعَةٌ مُفْرَعَةٌ، لَا زِلْتُ أَرْجِفُ (أَرْتَعِشُ) كُلَّمَا ذَكَرْتُهَا!»

(١٠) فَقْدَانُ الزَّادِ

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ» أَبُو السَّنَاجِبِ: «لَقَدْ دُمِّرَ (خَرِبَ) عُشُّكَ — إِذَنْ — يَا بَنَةَ عَمِّ! فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «صَدَقْتَ! فَقَدْ دُمِّرَ عُشِّي، وَتَبَدَّدَ زَادِي (تَفَرَّقَ طَعَامِي)، وَحَمَلَتْهُ الرِّيَّاحُ الْهُوْجُ (الَّتِي لَا تَسِيرُ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ)، إِلَى أَقَاصِي الْأَرْضِ النَّائِيَةِ (الْبُعِيدَةِ)، وَلَمْ يَبْقَ لَدَيَّ جَوْزَةٌ وَاحِدَةٌ، أَقْتَاتُ بِهَا. وَالْفَصْلُ — كَمَا تَعْلَمُ — شِتَاءٌ، وَلَيْسَ فِي الْأَشْجَارِ مِنْ شَيْءٍ يَصْلَحُ لِي زَادًا. فَمَا حِيلَتِي يَا بَنَ عَمِّ؟»

ثُمَّ صَمَتَتْ (سَكَتَتْ) «أُمُّ رَاشِدٍ» الْمُسْكِينَةُ، وَعَصَّتْ عَيْنَاهَا (امْتَلَأَتْهَا) بِالْدُمُوعِ، وَطَفِقَتْ تَبْكِي حَظَّهَا النَّاعِسَ مُتَأَلِّمَةً!

الفصل الثالث

(١) تَفَرَّقُ الْأُسْرَةُ

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «أَلَيْسَ لَكَ — يَابْنَةُ عَمٍّ — أَخٌ، أَوْ أُخْتُ، أَوْ أُسْرَةٌ تُعَاوِنُكَ (تُسَاعِدُكَ)، فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ (الشَّدِيدِ)؟ فَقَدْ طَالَمَا سَمِعْتُ أَنَّ الْفَأَرَ مُتَعَاوِنَةٌ، يُسَاعِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يَخْذُلُ قَرِيبٌ قَرِيبَهُ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «لَيْسَ فِي هَذَا شَكٌّ، يَا بَنَ عَمٍّ، وَلَكِنِّي لَا أَعْرِفُ أَيَّنَ تَسْكُنُ أُسْرَتِي وَأَهْلِي؟ وَمَبْلَغُ عِلْمِي أَنَّهُمْ أَسْرَعُوا إِلَى بُيُوتِ النَّاسِ لِيَقْطُنُوهَا؛ وَهَجَرُوا الْغَابَةَ فِي آخِرِ فَصْلِ الْخَرِيفِ، عِنْدَمَا أَصْفَرَّتْ أَوْراقُ الأشجارِ.

(٢) فِي بُيُوتِ النَّاسِ

وَقَدْ اعْتَرَمُوا أَنْ يَقْضُوا فَصْلَ الشِّتَاءِ فِي تِلْكَ الْمَسَاكِنِ الْإِهْلَةِ (الْمَسْكُونَةِ) بِالنَّاسِ، كَمَا هِيَ عَادَتُنَا، مَعَشَرَ الْفَأَرِ. وَلَقَدْ حَاوَلَ أَبِي وَأُمِّي أَنْ يَصْطَحِبَانِي فِي تِلْكَ الْهَجْرَةِ، وَلَكِنَّ خَالَتِي زَهْدَتْنِي فِي الطَّيِّبَاتِ وَاللَّذَائِدِ، الَّتِي تَأْكُلُهَا الْفَأَرُ فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ؛ لِمَا قَصَّته عَلَيَّ مِنْ مَكَايِدِ النَّاسِ، وَحِيلِهِمُ الْعَجِيبَةَ الَّتِي يَتَحَوَّلُونَهَا لِاصْطِيَادِنَا، مَعَشَرَ الْفَأَرِ.

فَصَاحَ «الْلَامِعُ»: «مَنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ الَّتِي تَعْنِينَ (تَقْصِدِينَ)؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «أَلَا تَعْرِفُ النَّاسَ، يَا عَزِيزِي «الْلَامِعُ»؟

إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ (الطُّوَالِ) يَسِيرُونَ عَلَى رِجْلَيْنِ كَمَا تَمْشِي الطُّيُورُ، لَا عَلَى أَرْبَعٍ كَمَا تَمْشِي، مَعْتَصِرَ الْفَأْرِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَرْتَدِي (يَلْبَسُ) ثَوْبًا أَشْبَهَ شَيْءٍ بِغَرَارَةِ (زَكِيَّةٍ)، أَوْ كَيْسٍ.»

فَضَحَكَ «الْلَامِعُ» وَإِخْوَتُهُ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ الظَّرِيفِ. وَقَالَ «الْلَامِعُ»: «لَعَلَّنِي أَذْكُرُ أَنَّي رَأَيْتُ وَاحِدًا تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ، وَقَدْ أَدهَشَنِي مَنْظَرُهُ. فَظَلَلْتُ أَرْقُبُهُ — مِنْ خِلَالِ الْأَغْصَانِ — حَتَّى اسْتَحْفَى عَنْ نَاطِرِي (غَابَ عَنْ عَيْنِي)، فَقَضَيْتُ الْعَجَبَ مِمَّا رَأَيْتُ.»

(٣) «أَبُو غَزْوَانَ»

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ فِي بُبُوتِ هَؤُلَاءِ الْإِنْسَاءِ (النَّاسِ) حَيَوَانًا شَرِيرًا، اسْمُهُ الْقِطُّ، وَكُنْيَتُهُ «أَبُو غَزْوَانَ». وَهُوَ يَأْكُلُ الْفَأَرَ فَلَا تَنْجُو مِنْ مِخْلَبِيهِ فَأَرَةً يَرَاهَا، بِالْغَةِ مَا بَلَغَتْ مِنَ الْمَهَارَةِ وَالْقُوَّةِ.

وَلَقَدْ حَدَّثُونِي عَنْهُ — فِيمَا حَدَّثُونِي — أَنَّ لَهُ شَارِبَيْنِ طَوِيلَيْنِ، يُذْعِرَانِ (يُخَوِّفَانِ) مَنْ يَرَاهُمَا، وَيَمْلَأَنَّ قَلْبَهُ رَهْبَةً وَهَلَعًا (خَوْفًا وَفَزَعًا).

وَلَقَدْ رَفَضْتُ أَنْ أَصْحَبَ أَبَوَيَّ فِي هِجْرَتِهِمَا، خَشْيَةً هَذَا الْحَيَوَانِ الضَّارِي (الْفَتَّاكِ) الْجَرِيءِ الْبَاطِشِ الْمُفْتَرِسِ.»

(٤) الْحَيَاةُ الْحُرَّةُ

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «لَقَدْ عَرَفْتُ مَنْزِعَكَ (طَبِيعَةَ نَفْسِكَ) يَا «أُمُّ رَاشِدٍ»؛ فَأَنْتِ تُوَثِّرِينَ (تُخْتَارِينَ) — مِثْلَنَا — سَكْنَى الْغَابَاتِ، حَيْثُ الْحَيَاةُ حُرَّةٌ وَالْهَوَاءُ طَلْقٌ. وَلَقَدْ طَالَمَا قَالَتْ لِي جَدَّتِي: إِنَّ الْكَفَافَ (الْعَيْشَ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ الضَّرُورِيَّةِ) مَعَ الْحُرِّيَّةِ خَيْرٌ مِنَ الرِّغْدِ (السَّعَةِ وَالتَّنْعُمِ) مَعَ الْعُبُودِيَّةِ!

وَخَيْرٌ لَنَا أَنْ نَعِيشَ فِي بُبُوتِنَا فَقَرَاءَ، فَذَلِكَ أَشْرَفُ مِنْ أَنْ نَعِيشَ فِي بُبُوتِ غَيْرِنَا أَغْنِيَاءَ. فَلْيَقْتَرِبْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أَيُّهَا الْأَبْنَاءُ الْبَرَّةُ (الطَّيِّبُونَ) لِتُخْلُوا مَكَانًا لِصَدِيقَتِنَا «أُمِّ رَاشِدٍ!»

(٥) أُسْرَةُ الْقَرَّاضِينَ

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «طَبَبْتُ نَفْسًا، وَشَرُفْتُ أَصْلًا، يَا بَنَ عَمَّ. فَخَبَّرَنِي أَيُّهَا الْكَرِيمُ: كَيْفَ أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ؟»

فَقَالَ «أَبُو السَّنَاجِبِ»: «شَدَّ مَا تُضْحِكِينَنِي يَا بَنَّةَ عَمٍّ! لِمَاذَا تَشْكُرِينَ؟
أُقْسِمُ — بِقِصَّتِي — إِنَّنِي لَا أُرَانِي (أُظُنُّنِي) فَعَلْتُ إِلَّا بَعْضَ مَا يَجِبُ عَلَيَّ نَحْوَكِ!
لَقَدْ نَزَلْتُ بِكَ الْأَحْدَاثُ (مَصَائِبُ الدَّهْرِ)، وَلَيْسَ مِنَ الْمُرْوَةِ أَنْ أَتَخَلَّى عَنْكِ فِي مَحْنَتِكَ.
أَنَسِيتِ — يَا عَزِيزَتِي — أَنَّنَا مِنْ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ؟!»

فَأَجَابَتْهُ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «كَيْفَ أُنْسَى ذَلِكَ، يَا «أَبَا السَّنَاجِبِ»؟
أَلَسْنَا مِنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ الْأُسْرَةِ الْعَظِيمَةِ الْمَاجِدَةِ: أُسْرَةِ الْقَرَّاضِينَ (الْقَطَّاعِينَ)، الَّتِي
تَقْطُنُ جَمِيعَ أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ (تَسْكُنُ كُلَّ أَنْحَاءِ الدُّنْيَا)، وَتَحْتُلُّ الْأَرْضَ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى
أَقْصَاهَا؟»

(٦) بَنَاتُ الْعَمِّ

فَوَقَّفَ «الَّلَامِعُ» «أَمَامَ أَنْفِ «أُمِّ رَاشِدٍ»، وَظَلَّ يُنْعِمُ النَّظَرَ فِيهَا مَلِيًّا (وَقْتًا طَوِيلًا)، ثُمَّ
قَالَ لَـ «قُنْزَعَةُ» مَذْهُوشًا: «كَيْفَ تُقَرُّ «أُمُّ رَاشِدٍ» عَلَى أَنَّنَا مِنْ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ؟ لَقَدْ كُنْتُ
أَحْسَبُكَ تُدَاعِبُهَا (ظَنَنْتُكَ تُمَارِحُهَا)، حِينَ تَدْعُوهَا بِابْنَةِ عَمِّكَ، وَلَكِنِّي أَلْمَحُ (أَرَى) الْجِدَّ
فِي حَدِيثِكُمَا، وَلَا أَرَى — فِيمَا تَقُولَانِ — شَيْئًا مِنَ الدُّعَابَةِ (الْفُكَاهَةِ وَالْهَزْلِ). وَمَا أَدْرِي:
كَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَةُ الصَّغِيرَةُ الْجَرْمِ (الْحَجْمِ)، الضَّئِيلَةُ الْجِسْمِ، مِنْ بَنَاتِ عَمَّنَا؟
هَذَا مَا لَا أَفْهَمُهُ!»

(٧) أَسْنَانُ الدَّوَابِّ

فَصَاحَ «قُنْزَعَةُ»: «أَلَا تَكْفُ عَنْ هَذَرَكَ (عَبَثِكَ وَمُزَاحِكِ) أَيُّهَا الْغَبِيُّ؟ مَا بِأَنَّكَ تُغْلِظُ الْقَوْلَ
لِهَذِهِ الضَّئِيفِ الْعَزِيزَةِ؟ أَلَا تَدْرِي: بِأَيِّ مِيزَةٍ تَتَعَرَّفُ فَصَائِلُ الْحَيَوَانِ (أَنْوَاعُهُ)؟ أَلَمْ أُشْرَحْ
لَكُمْ هَذَا مِنْ قَبْلُ؟»

فَقَالَ «السَّاطِعُ»: «صَدَقْتَ — يَا أَبَتِي — فَقَدْ حَدَّثْتُنَا: أَنَّ الدَّوَابَّ تُعَرَّفُ بِأَسْنَانِهَا.»

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «مَرَحَى، مَرَحَى (أَحْسَنْتَ ... أَحْسَنْتَ) أَيُّهَا الذَّكِيُّ الصَّغِيرُ! تَعَالَ إِلَى جَانِبِي، وَافْتَحْ فَاكِ، عَلَى مَدَى اتِّسَاعِهِ.
وَتَعَالَ، يَا «لَامِعُ» فَاَنْظُرْ: كَمْ سِنًّا أُمَامِيَّةً فِي فَمِ أَخِيكَ الصَّغِيرِ؟»
فَحَدَّقَ «الَلَامِعُ» بَصَرَهُ — كَمَا أَمَرَهُ أَبُوهُ — ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَرَى ثِنْتَيْنِ فِي الْفَكِّ الْأَعْلَى مِنْ الْحَنَكِ، وَثِنْتَيْنِ فِي الْفَكِّ الْأَسْفَلِ، وَمَجْمُوعُهُمَا أَرْبَعُ أَسْنَانٍ.»

(٨) الْقَوَاطِعُ

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «صَدَقْتَ يَا «لَامِعُ». فَهَلْ تَعْرِفُ اسْمَ هَذِهِ الْأَسْنَانِ الْمُسْتَعْرِضَةِ؟ إِنَّهَا تُسَمَّى: الْقَوَاطِعُ. أَفَهِمْتَ يَا «لَامِعُ»؟»
فَقَالَ لَهُ «لَامِعُ»، وَقَدْ تَطَلَّقَ مُحْيَاهُ (انْبَسَطَ وَجْهُهُ) بِشَرًّا وَحُبُورًا: «نَعَمْ — يَا أَبَتَاهُ — فَهِيَ تُسَمَّى: الْقَوَاطِعُ.»
فَاسْتَأْنَفَ «قُنْزَعَةُ» قَائِلًا: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْقَرَّاضَةِ الْمَتَسَلِّقَةِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْنَا، مَعْشَرَ السَّنَاجِبِ — وَعَلَى بَنَاتِ أَعْمَامِنَا الْجِرْدَانِ وَالْفِيرَانِ — أَرْبَعُ أَسْنَانٍ قَاطِعَةٍ، نَسْتَعْمَلُهَا لِلْقَرْضِ (الْقَطْعِ).»
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى «أُمِّ رَاشِدٍ»، قَائِلًا: «أَتَأَذْنِينِ — مَتَفَضِّلَةً — يَا بِنْتَهُ عَمَّ — أَنْ تَفْتَحِي فَاكِ، لِأَرَى هَذَا الطَّائِشُ مِصْدَاقَ (بُرْهَانِ) مَا أَقُولُ؟»
فَقَالَتْ لَهُ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «لَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ تَلْبِيَةِ أَمْرِكَ، يَا بِنْتِ عَمِّ.»

(٩) أَسْنَانُ «أُمِّ رَاشِدٍ»

ثُمَّ انْتَصَبَتْ وَاقِفَةً عَلَى رِجْلَيْهَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ. وَفَتَحَتْ فَاها — عَلَى مَدَى اتِّسَاعِهِ — فَكَانَ شَكْلُهَا غَايَةً فِي الْبَشَاعَةِ (الْفُضَاعَةِ). وَلَمْ يَتِمَّا لِكَ «الَلَامِعُ» أَنْ يَضْحَكَ مِنْ رُؤْيَيْهَا. وَأَرَادَ «السَّاطِعُ» وَ«الْبَرَّاقُ» أَنْ يُتَابِعَا أَخَاهُمَا فِي ضَحِكِهِ، وَيَحْدُوا حَدْوَهُ، وَلَكِنَّ «قُنْزَعَةَ» — وَهُوَ يُبْغِضُ الْمِزَاحَ فِي مَوَاطِنِ الْجَدِّ — قَطَبَ حَاجِبَيْهِ (جَمَعَ لَحْمَهُمَا كَمَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ، إِذَا عَبَسَ وَغَضِبَ)، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُوَاصِلَ ضَحِكَهُ.



وَأَنْشَأَ «السَّاطِعُ» يَعُدُّ أَسْنَانَ «أُمِّ رَاشِدٍ»، بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ: «وَاحِدَةٌ ... ثِنْتَانِ ... ثَلَاثٌ ... أَرْبَعٌ ...»
وَتَمَّةٌ (وَهُنَاكَ) أَدْرَكَ «السَّاطِعُ» خَطَأَهُ وَجَهْلَهُ؛ فَطَاطَأَ رَأْسَهُ مُجَمِّمًا (مُتَكَلِّمًا بِكَلَامٍ غَيْرٍ وَاضِحٍ): «إِنَّ لَهَا أَرْبَعَ أَسْنَانٍ قَاطِعَةً أَيْضًا!»

(١٠) اعْتِذَارُ النَّادِمِ

فَقَالَ «قُنْزَعَةُ»: «فَهَلْ أُيْقِنْتَ (تَتَبَّيْتُ) الْآنَ — يَا «سَاطِعُ» — أَنَّ الْفَأَرَ وَالسَّنَاجِبَ مِنْ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَصِلْ وَاحِدٍ؟
وَهَلْ أَدْرَكْتَ — أَيُّهَا الْمَغْرُورُ — أَنَّكَ أَمَعَنْتَ فِي الْإِسَاءَةِ (بَالِغَتْ فِيهَا) إِلَى هَذِهِ الضَّيْفِ الْعَزِيزَةِ؟
فَهَلُمَّ أَقْبِلْ — يَا «سَاطِعُ» — فَاعْتِذِرْ لَابْنَةِ عَمِّكَ مِمَّا أَسْلَفْتَ مِنْ إِسَاءَةٍ وَعُقُوبٍ...»

فَتَوَجَّهَ «سَاطِعُ» إِلَى بِنْتِ عَمِّهِ «أُمِّ رَاشِدٍ» مُعْتَذِرًا نَادِمًا.
وَمَا كَانَ أَسْرَعَ صَفْحَهَا وَغُفْرَانَهَا (سُرْعَانَ مَا سَامَحَتْهُ وَتَجَاوَزَتْ عَنْ ذَنْبِهِ وَغَفَرَتْ لَهُ إِسَاءَتَهُ)! فَلَقَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ «أُمُّ رَاشِدٍ» تَدَاعِبُهُ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ (تُمَارِضُهُ وَتَتَحَبَّبُ إِلَيْهِ)، وَتَلَحُّسُهُ بِلِسَانِهَا اللَّطِيفِ.

الفصل الرابع

(١) ألامُ الجوعِ

ثُمَّ سَادَ الصَّمْتُ زَمَنًا يَسِيرًا (وَقَتًا قَلِيلًا)، وَظَلَّتِ السَّنَاجِبُ تَصْقُلُ (تُلَمَّعُ) بِالسِّنَتِهَا جُلُودَهَا، وَتَلَحُّسُهَا. وَبَدَا الْإِرْتِبَاكُ وَالْقَلْقُ عَلَى وَجْهِ «أُمِّ رَاشِدٍ». فَسَأَلَهَا «أَبُو السَّنَاجِبِ» عَنْ مَصْدَرِ هَمِّهَا وَانْزِعَاجِهَا، فَقَالَتْ مُجْمِجَةً: «لَقَدْ نَفَدَ صَبْرِي — يَا بَنَاتِ عَمِّي — وَاشْتَدَّتْ بِي أَلَامُ الْجُوعِ، حَتَّى ضَعُفَتْ بِهَا ذُرْعَا (ضَعُفَتْ طَاقَتِي، وَقَلَّ احْتِمَالِي، وَلَمْ أَجِدْ لِلْمَكْرُوهِ فِيهَا مَخْلَصًا). فَقَدْ لَبِثْتُ (بَقِيتُ) — مُنْذُ مَسَاءِ الْأَمْسِ إِلَى الْيَوْمِ — دُونَ طَعَامٍ. فَهَلْ أَجِدُ فِي بَيْنِكُمْ شَيْئًا مِنَ الزَّادِ؟»

فَقَالَ «فُنْزَعَةُ»: «مَا أَشَدَّ بِلَاهَتِي (مَا أَعْظَمَ غَفْلَتِي وَغَبَاوَتِي)، وَمَا أَقَلَّ ذَوْقِي وَفِطْنَتِي! فَقَدْ أَنْسَيْتُ هَذَا الْوَاجِبَ — يَا بَنَّةَ عَمٍّ — وَلَيْسَ عِنْدِي — لِسُوءِ الْحَظِّ — شَيْءٌ تَقْرِيضِيهِ (تَقْطَعِيهِ) الْآنَ. فَتَرِيْنِي (انْتَظِرِي) لِحَظَاتِ يَسِيرَةٍ (زَمَنًا قَلِيلًا)، حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ مِنَ الزَّادِ.»

(٢) فِي زَمْهِيرِ الشِّتَاءِ

ثُمَّ تَحَفَّرَ (تَأَهَّبَ) «فُنْزَعَةُ» لِلْخُرُوجِ مِنَ الْعُشِّ، وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يُطْلُ بِأَنْفِهِ، حَتَّى عَادَ أَدْرَاجَهُ (رَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتَى)، وَهُوَ يَصِيحُ فَرَحًا: «يَا لَهُ مِنْ بَرِّ قَارِسٍ (شَدِيدٍ)، لَقَدْ تَحَدَّرَ الْجَلِيدُ (تَسَاقَطَ التَّلْجُ) فَمَلَأَ الدُّنْيَا، فَهَلُمُّوا (أَقْبِلُوا) — أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ — لِتَرَوْا ذَلِكَ الْمَنْظَرَ الْبَدِيعَ.»

فَخَرَجُوا جَمِيعًا، وَظَلُّوا يَثْبُونَ (يَقْفُزُونَ) بَيْنَ الْأَغْصَانِ، وَظَلَّ الْجَلِيدُ يَتَحَدَّرُ (يَتَساقطُ) عَلَى فِرَائِهِمْ، فَنَزِيدُهُمْ فَرَحًا وَإِنْسَاءً..
وَلَكِنَّ السَّنَاجِيبَ الصَّغِيرَةَ لَمْ تُطِقِ الْبَقَاءَ طَوِيلًا فِي الزَّمْهَرِيرِ (اشْتِدَادِ الْبَرْدِ)؛ فَقَدْ عَجَزَتْ أَرْجُلُهَا الْعَارِيَّةُ عَنِ احْتِمَالِ الْبَرْدِ الْقَارِسِ (الشَّدِيدِ).
فَقَالَ «سَاطِعُ»: «عُودُوا (ارْجِعُوا) بِنَا إِلَى الْعُشِّ. فَقَدْ كَادَ جِسْمِي يَجْمُدُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ!»
فَتَرَكَهُمْ أَبُوهُمْ، لِيُخْضِرَ الطَّعَامَ لَصِيفِهِ الْعَزِيزَةَ.

(٣) ذِكْرِيَاتُ «أُمِّ رَاشِدٍ»

فَعَادُوا جَمِيعًا إِلَى الْعُشِّ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَقِرُّ بِهِمُ الْمَقَامُ حَتَّى قَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «لَقَدْ أَرْعَجْتُمْ — أَيُّهَا الصَّغَارُ الْأَعْرَاءُ — هَذِهِ الْعَاصِفَةُ (الرَّيْحُ الشَّدِيدَةُ) الْبَارِدَةُ الْمُقْرِعَةُ».
فَقَالُوا لَهَا: «صَدَقْتَ، يَا بَنَّةَ عَمِّ».
فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «أَه، لَوْ أَنَّ أُمُكُنَّ هُنَا! إِذَنْ لَهَذَاتُ مِنْ رُوعِكُنَّ (سَكَنَتْ مِنْ قَلْبِكُنَّ). فَإِنِّي أَعْرِفُهَا سَنَجَابَةً طَيِّبَةَ النَّفْسِ، جَرِيئَةَ الْقَلْبِ، لَا يَدَانِيهَا مِنْ بَنَاتِ السَّنَاجِيبِ أَحَدٌ فِي خِلَالِهَا (خِصَالِهَا) الْجَمِيلَةِ، وَمَزَايَاها الْحَمِيدَةِ.
وَلَعَلَّكُنَّ لَا تَعْرِفْنَ: مَاذَا صَنَعَتْ أُمُكُنَّ الْعَزِيزَةُ فِي سَبِيلِ إِنْقَازِكُنَّ، حِينَ كُنْتُنَّ — فِي أَوَّلِ نَشَأَتِكُنَّ — أَطْفَالًا صِغَارًا؟»
فَقَالُوا لَهَا: «كَلَّا. لَمْ نَعْرِفْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ».

(٤) مَوْلِدُ السَّنَاجِيبِ

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «أَلَمْ يُحَدِّثْكُنَّ أَبُوْكُنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الطَّرِيفَ؟ أَصْغُوا إِلَيَّ، فَإِنِّي قَاصَّتُهُ عَلَيْكُنَّ، أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ: لَمَّا وَلِدْتُمْ — أَيُّهَا الصَّغَارُ الْأَعْرَاءُ الْمَحْبُوبُونَ — ابْنَهَجَ بِكُمْ أَبُوَاكُمْ، وَسَرًّا سُرُورًا عَظِيمًا. وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمَا الْأَصْدِقَاءُ يُهْنِئُونَهُمَا بِوِلَادَتِكُمْ. وَامْتَلَأَ قَلْبُ أُمُكُمُ الْحُنُونَ (الرَّحِيمَةَ) فَرَحًا وَغَبْطَةً بِهِذِهِ الْعَرَائِسِ الصَّغِيرَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي وَلَدَتْهَا. وَعَاشَتْ — إِلَى جَانِبِكُمْ — أَسْعَدَ عَيْشٍ. وَلَمْ يُكْدَرْ صَفُوهَا أَيُّ مُكْدَرٍ.

(٥) عَدُوُّ السَّناجِبِ

وفي ذاتِ يومٍ أَبْصَرْتُ (رَأَيْتُ) — وهي خَارجَةٌ — حيوانًا أَسْوَدَ، يَدُورُ حَوْلَ شَجَرَتِكُمْ، مُتَحَفِّزًا لِلْفَتَكِ (مُتَوَثِّبًا مَتَأَهِّبًا لِلْبَطْشِ وَالْإِفْتِرَاسِ) اسمه: «الدَّقُّ». وهو حيوانٌ شَرِسٌ، شَدِيدُ الْخَطَرِ، في مِثْلِ حِجَمِ الْقِطِّ وَهَيْئَتِهِ، وَلَكِنَّهُ أَحْمَرُ الْجِسْمِ، أَبْيَضُ الْحَلْقِ وَالصَّدْرِ، وهو مِنْ أَلَدِ أَعْدَاءِ شَعْبِ السَّناجِبِ النَّبِيلِ. فَاحْذَرُوا مِنْهُ — أَيُّهَا الْأَعْزَاءُ — وَلَا تُخْطِئُوا شَكْلَهُ؛ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ حَيوانٍ شَبَّهَا بِالْقِطِّ.

أَهْ لَكُمْ، أَيُّهَا الصَّغارُ! وَوَاهٍ مِنْ تِلْكَ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسةِ الَّتِي تُزْعِجُ الْأَمْنِينَ الْوَادِعِينَ! فلولَها لَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا جَنَّةً، وَعَاشَ فِيها أَهْلُها في غِبْطَةٍ وَسَعادَةٍ دائِمَتَيْنِ.

(٦) فَرْعُ الْوالِدِ

وَلَمْ تَكُنْ أُمُّكُمْ الْحَنُونُ تَرَى هَذَا «الدَّقَّ» حَتَّى اِمْتَلَأَ قَلْبُها رُعبًا، فَاسْرَعَتْ إِلَى الْعُشِّ مَدْعُورَةً (خائِفَةً)، وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ مِنْهُ. وَكانَ أَبُوكُم الْعَزِيزُ غائِبًا فِي ذَلِكُم الْيَوْمَ، فَقَدْ نَهَبَ — فِيمَا حَدَّثَنِي — لَزِيارَةِ أَحَدِ أَعْمامِكُمْ، فِي الْغابَةِ الْمُجاوِرَةِ. وَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ (أَظْلَمَ)، عادَ — فِي طَرِيقِهِ إِلَى عُشِّهِ — مُطْمَئِنًّا، وَفِي فَمِهِ جَوْزَةٌ لَذِيذَةُ الطَّعْمِ، وَقَلْبُهُ مُنْشَرِحٌ مَسْرُورٌ بِقُرْبِ لِقائِكُمْ. وَلَكِنْ سُرُورُهُ تَبَدَّلَ غَمًّا وَهَمًّا وانزعاجًا، حِينَ رَأَى «الدَّقَّ» خَارجًا مِنْ عُشِّكُمْ. فامْتَلَأَ قَلْبُهُ دُغْرًا، وَخَرَجَ هائِمًا (مُتَحَيِّرًا) فِي الْغابَةِ. وَظَلَّ يَقِفُ — فِي أَثْناءِ طَرِيقِهِ — مَذْهولًا مُضْطَرِبًّا، وَهُوَ يُنادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «وا ساطِعا! وا لِمِعا! وا بَرّاقا! وا زُوجا! أَيْنَ مِنْ عَيْنَيَّ: السَّاطِعُ وَاللَّامِعُ وَالْبَرّاقُ، وَ«عَدِيرَةُ»: أُمُّ السَّناجِبِ!» فلا يُجِيبُهُ أَحَدٌ. وَثَمَّةَ أَيْقَنَ أَبُوكُم أَنَّ «الدَّقَّ» الْحَبِيثَ قَدْ فَتَكَ بِكُمْ (افْتَرَسَكُمْ) جَمِيعًا.

(٧) فَرْحَةُ اللَّقَاءِ

وَلَمَّا أَصْبَحَ وَقَفَ عِنْدَ جَذْعِ شَجَرَةٍ، وَقَدْ جَهَدَهُ (أَرَهَقَهُ وَأَضْنَاهُ) التَّعَبُ وَالسَّهَرُ وَالْحُزْنُ، فَمَاذَا رَأَى؟ لَقَدْ رَأَى أُمُّكُمْ الْعَزِيزَةَ جَادَّةً فِي الْبَحْثِ عَنْهُ. فَلَمَّا رَأَتْهُ «عَدِيرَةُ» بَكَتْ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، وَقَالَتْ لَهُ: «أَلْفَ شُكْرٍ لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ!»

فَبَادَرَهَا قَائِلًا: «كَمْ أَنَا سَعِيدٌ بِلُقْيَاكِ (بِلِقَائِكَ)! فَحَدِّثِينِي — بِرَبِّكَ — أَيْنَ الْأَوْلَادُ؟»
فَقَالَتْ «غَدِيرَةٌ»: «لَقَدْ نَجَوْنَا — بِحَمْدِ اللَّهِ — مِنَ الْهَلَاكِ!»
ثُمَّ سَارَتْ مَعَهُ إِلَى عُشٍّ قَدِيمٍ، هَجَرَهُ غُرَابٌ، فَلَمَّا صَعِدَا إِلَى شَجَرَةِ الْقَسْطَلِ، وَجَدَاكَم:
وَإِدْعَيْنِ مَسْرُورَيْنِ.

(٨) النجاة مِنَ الدَّلَقِ

فَابْتَهَجَ أَبُوكُمْ بِسَلَامَتِكُمْ. وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْفَرَحُ، وَظَلَّ يَقْبَلُكُمْ، وَيَرْقُصُ — مِنْ فَرَطِ
سُرُورِهِ — حَوْلَ عُشِّكُمْ، وَيَسْتَمِعُ إِلَى حَدِيثِ أُمَّكُمْ، وَهِيَ تَقُولُ: «عِنْدَمَا رَأَيْتِ «الدَّلَقَ»
يَدْنُو مِنَ الشَّجَرَةِ، كَانَ اللَّيْلُ قَدْ أَرَخَى عَلَى الْغَابَةِ سُدُولَهُ (سُتُورَهُ)، فَحَمَلْتُ أَوْلَادِي بَيْنَ
أَسْنَانِي، وَوَضَعْتُهُمْ عَلَى عُنْقِي، وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، إِلَى هَذَا الْعُشِّ الْمَهْجُورِ الَّذِي تَرَكَهُ
صَاحِبُهُ «الْغُرَابُ».



(٩) شُكْرُ السَّنَاجِبِ

وكانت «السَّنَاجِبُ» جالِسةً على أقدامها الخَلْفِيَّةِ؛ رافعةً أذنانها، مُصْغِيَةً إلى حَدِيثِ «أُمِّ رَاشِدٍ»، وَقَدْ اشْتَدَّ عَجَبُهُمْ مِمَّا سَمِعُوا.
فَلَمَّا انْتَهَتْ مِنْ كَلَامِهَا، هَزُّوا رُءُوسَهُمْ وَنَوَاصِيَهُمْ (وَهِيَ: الشَّعْرُ الْمُقَدَّمُ فِي رُءُوسِهِمْ) مَذْهُوشِينَ، وَقَالُوا لَهَا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ: «شُكْرًا لَكَ. شُكْرًا لَكَ — يَا بَنَّةَ عَمِّ — عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ الْعَجِيبِ الشَّائِقِ».

(١٠) مَخْرَنُ الْجَوَزِ

وكانَ «قُنْزَعَةُ» — فِي أَثْنَاءِ هَذَا الْوَقْتِ — يَبْذُلُ جُهْدَهُ فِي رَفْعِ الثَّلَجِ بِأَيْدِيهِ، بِجَوَارِ عَرِيْشَةِ الْجَوَزِ، وَقَدْ كَانَ يُخَبِّئُ عِنْدَهَا مَوْوَنَةَ الْخَرِيفِ الْمَاضِي. وَقَدْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الْإِهْتِدَاءُ إِلَى مَكَانِ الطَّعَامِ — حِينَئِذٍ — بَعْدَ أَنْ غَطَّيْتَ الْأَرْضَ بِالْجَلِيدِ، فَظَلَّ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قَائِلًا: «مَا أَظُنُّنِي مَخْدُوعًا فِي تَعْرِفِ الْمَكَانِ، عَلَى أَيِّ حَالٍ إِنَّهُ — فِيمَا أَعْلَمُ — أَمَامَ شَجَرَةِ الْبَلُوطِ الْجَوْفَاءِ الَّتِي كَانَ يَعِيشُ فِيهَا صَدِيقِي «أَبُو سَنْجَبٍ». ثُمَّ ظَلَّ يَحْفَرُ الْجَلِيدَ بِيَدَيْهِ الْمَاهِرَتَيْنِ، حَتَّى عَثَرَ عَلَى ضَالَّتِهِ (حَاجَتِهِ). فَصَاحَ مَزْهُوًّا فَرَحًا: «مَرَحَى! مَرَحَى! لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى مَكْمَنِ الزَّادِ (مَخْبَأِ الطَّعَامِ). أَه! مَا بَالُ الْمَوْوَنَةِ فِي نَقْصِ كَبِيرٍ! وَمَا بَالُ الْمَخَابِيِ الْأُخْرَى خَاوِيَةً (خَالِيَةً)؟ لَيْسَ لِي مِنْ حِيلَةٍ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ، الَّذِي لَا يَنْسَى أَحَدًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ!» ثُمَّ أَمْسَكَ فِي فَمِهِ بِجَوْزَةً جَمِيلَةً، ثَقِيلَةً الْوِزْنِ، وَغَطَّى مُسْتَوْدَعَ الزَّادِ بِالْجَلِيدِ، كَمَا كَانَ، وَعَادَ مُسْرِعًا إِلَى عُشِّهِ الْأَمِينِ.

(١١) الْجَوْزَةُ الشَّهِيَّةُ

وَلَمَّا عَادَ إِلَى عُشِّهِ سَمِعَ «أُمَّ رَاشِدٍ» تُحَدِّثُ أَوْلَادَهُ أَحَادِيثَهَا الْجَمِيلَةَ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ مُتَعَجِّبًا: «يَا لَهَا مِنْ ثَرَاتٍ عَجِيبَةٍ، فَقَدْ شَغَلَهَا الْحَدِيثُ عَنِ الْجُوعِ وَالْأَمَةِ!»
وَلَمَّا رَأَى أَوْلَادَهُ فَرَحُوا بِعَوْدَتِهِ، وَحَيَّوهُ مَسْرُورِينَ، فَأَعْطَى صَيفَهُ تِلْكَ الْجَوْزَةَ الشَّهِيَّةَ الَّتِي أَحْضَرَهَا، وَهِيَ تَبَرَّقَتْ مِنَ الرُّطُوبَةِ، وَقَالَ لَهَا: «هَاكِ مَا طَلَبْتِ. وَلَعَلَّ هَذِهِ الْجَوْزَةُ تُلَاتِمُ دَوَقَكَ، أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ!»



فشكرت له هديته، وأمسكت بها بين يديها الأماميتين. وبرقت (لمعت) عيناها من الفرح، وتحرك ذنبها طرباً، ولم تضع وقتها عبثاً (بلا فائدة)، فظلت تقضمها (تعضها) بأطراف أسنانها، فيسمع لضمها مثل صرير المنشار. وما زالت تغرس أسنانها الحادة، وهي جادة في قضم الجوزة، حتى ثقتها ثقبا يكفي لإدخال فيها الصغير المدبب. فصاحت قائلة: «يا لها من رائحة ذكية، يابن عم! ما أشهاها (ما ألذها) جوزة!»

(١٢) فائدة القضم

وكان صغار السناجيب ينظرون إليها — في دهش وعجب — فقال لهم أبوهم: «إن السناجيب العاقل الرشيد يقسم الجوزة نصفين، قبل أن يهم بأكلها.» ولما فرغت «أم راشد» من طعامها مسح فاهما بيديها، وفاض الفرح على وجهها، فقالت: «لقد ارتاح بالي، ونجوت من آلام الجوع. فأنت تعلم — يابن عم — أن أسناننا تنمو دائماً وتطول، ولا يقصرها إلا موالاة القضم والقرض، ولولا ذلك لهلكنا من فرط الألم، فهل تأذن لي في أن أعود من حيث أتيت، فإنني قد ضايقتكم كثيراً.»



فقال «قُنْزَعَةُ»: «كَلَّا، لَا تُفَكِّرِي فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ يَا عَزِيزَتِي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَزْعَجِينَا، بَلْ أَدْخَلْتِ السُّرُورَ وَالْفَرَحَ عَلَى قُلُوبِنَا. وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَجُولِي (تَطُوفِي) فِي الْغَابَةِ الْآنَ، بَعْدَ أَنْ غُطِّيتُ أَرْضَهَا بِالْجَلِيدِ.»
 فقالت «أُمُّ رَاشِدٍ»: «شُكْرًا لَكَ — يَا بِنَ عَمَّ — عَلَى كَرَمِكَ وَسَمَاحَتِكَ — (جُودِكَ)؛ فَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَزْجِجَكُم وَأُضَايِقَكُم.»
 فصاح صِغَارُ السَّنَاجِبِ: «كَلَّا، كَلَّا، فَقَدْ مَلَأَتْ قُلُوبُنَا بِشَرًّا وَسُرُورًا بِأَحَادِيثِكَ الْطَرِيفَةِ. فَالْبَيْتِي (امْكُتِّي) مَعَنَا، لِتَحْدِثِينَ بِأَسْمَارِكَ الْمُعْجِبَةِ.»

(١٣) الْقَرْقَذَانُ وَالْقَرْقَذُونُ

فقال «أَبُو السَّنَاجِبِ»: «هَلْ قَصَصْتِ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ «الْقَرْقَذَانِ وَالْقَرْقَذُونِ»؟»
 فقالت «أُمُّ رَاشِدٍ»: «كَلَّا، لَمْ أُحْدِثْهُمْ بِقِصَّةِ هَذَيْنِ السَّنَاجِبَيْنِ الْعَجِيبَةِ، وَقَدْ ذَكَرْتَنِي بِهَا — يَا بِنَ عَمَّ — بَعْدَ أَنْ أَوْشَكْتُ (كَدْتُ) أَنْ أَنْسَاهَا.»
 فصاح السَّنَاجِبُ: «مَا هِيَ تِلْكَ الْقِصَّةُ، يَا بِنَةَ عَمَّ؟ بِرَبِّكَ حَدِّثِينَا بِهَا، أَيَّتُهَا الضَّيْفُ الْكَرِيمَةُ!»

الفصل الخامس

(١) قصّة السَّنْجَابَيْنِ

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ بِقِصَّةِ هَذَيْنِ السَّنْجَابَيْنِ، فَإِنَّ فِيهَا لَعِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ (مَوْعِظَةً لِمَنْ يَتَّعِظُ). ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

(٢) نَزْهَةُ الْقَرْقَذَانِ

«كَانَ — يَا مَا كَانَ — فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَسَالَفِ الْعَصْرِ وَالْأَوَانِ، سَنْجَابَانِ شَقِيقَانِ: اسْمُ أَحَدِهِمَا: «الْقَرْقَذُونُ»، وَاسْمُ أُخِيهِ الْآخَرُ: «الْقَرْقَذَانُ».

وَكَانَا — حِينئِذٍ — طِفْلَيْنِ صَغِيرَيْنِ، يَقْطُنَانِ (يَسْكُنَانِ) شَجَرَةً عَجُوزًا، فِي غَابَةِ مَظْلَمَةٍ، تَكْتَنِفُهَا (تُحِيطُ بِهَا) الْأَشْجَارُ الْكَثِيفَةُ (الْكَثِيرَةُ، الْمَتْرَاكُ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ). وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ عَنَّنَ (عَرَضَ) لَهُمَا أَنْ يَهْبِطَا إِلَى الْأَرْضِ، وَيَلْعَبَا بَيْنَ النَّبَاتَاتِ وَالْأَعْشَابِ وَالشُّجَيْرَاتِ الصَّغِيرَةِ.

وَكَانَ «الْقَرْقَذَانُ» أَشْجَعَ مِنْ أُخِيهِ «الْقَرْقَذُونِ»، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ، وَخَرَجَ مُنْفَرِدًا إِلَى الْغَابَةِ. وَظَلَّ يَجُوسُ أَثْنَاءَهَا (يَمْشِي خِلَالَهَا) طَوْلَ يَوْمِهِ، حَتَّى جَنَّ اللَّيْلُ (أَظْلَمَ)؛ فَعَادَ إِلَى عُشِّهِ لِيَنَامَ.

(٣) شَجَرَةُ الْجَوْزِ

وَلَمَّا رَأَاهُ شَقِيقُهُ «الْقَرْقُذُونُ» سَأَلَهُ مُتَعَجِّبًا: «أَيْنَ قَضَيْتَ يَوْمَكَ، يَا أَخِي «الْقَرْقُذَانُ»؟»
فَحَدَّثَتْهُ «الْقَرْقُذَانُ» بِكُلِّ مَا رَأَاهُ فِي تَجَوُّلِهِ (فِي سِيرِهِ) مِنْ غَرَائِبَ وَمُدهِشَاتٍ، وَوَصَفَ لَهُ سُرُورَهُ وَابْتِهَاجَهُ بِتِلْكَ الرِّحْلَةِ الْقَصِيرَةِ، الَّتِي قَضَاهَا فِي النَّهَارِ، وَقَالَ لَهُ، فِيمَا قَالَ: «إِنَّ فِي الْغَابَةِ — يَا أَخِي — أَشْجَارًا لَا يُحْصِيهَا الْعَدُّ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَقُطْنُهَا وَأَضْخَمُ. وَفِيهَا مِنْ جَوْزِ الْبُلُوطِ، وَثَمَرِهِ الْيَانِعِ (الَّذِي حَانَ قِطَافُهُ) مَا لَا يُحْصَى. وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَهْرَةً (طَائِفَةً وَجُمْلَةً) كَبِيرَةً مِنْ شَجَرِ الْجَوْزِ الشَّهِيِّ (الَّذِيذِ الطَّعْمُ)، وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَصِفَ لَكَ مِقْدَارَ مَا امْتَلَأَتْ بِهِ نَفْسِي مِنَ الْغِبْطَةِ (الْفَرَحِ) وَالسُّرُورِ بِهَذِهِ النَّزْهَةِ الْجَمِيلَةِ.

أَلَا تُحِبُّ أَنْ تَصْحَبَنِي — فِي الْغَدِ — لِنَجُولَ مَعًا فِي أَرْجَاءِ الْغَابَةِ (لِنَمْشِي فِي جَوَانِبِهَا)؟»

فَقَالَ لَهُ «الْقَرْقُذُونُ»، وَهُوَ يَبْتَسِمُ: «لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي هَذِهِ الْفِكْرَةُ الْبَدِيعَةُ، وَلَا بَدَّ لِي مِنْ مُصَاحِبَتِكَ غَدًا، لِنَرْتَادَ (لِنَكْشِفَ) تِلْكَ الْأَصْقَاعَ (الْجِهَاتِ وَالنَّوَاجِي) الْمَجْهُولَةَ، وَنَطْعَمَ تِلْكَ الثَّمَارَ الشَّهِيَّةَ. وَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ، الَّتِي طَالَمَا تَرَدَّدَتْ فِي تَحْقِيقِهَا، مِنْ قَبْلُ. وَإِنِّي لِأَتَرَقَّبُ (أَنْتَظِرُ) الصَّبَاحَ الْبَاكِرَ بِفَارِغِ الصَّبْرِ.»

(٤) أَحْلَامُ سَعِيدَةٍ

فَصَاحَتْ أُمُّهُمَا قَائِلَةً: «فِيمَ تَتَحَدَّثَانِ أَيُّهَا الْخَبِيثَانِ؟ إِنِّي أَسْمَعُ ثَرْتَرَةً (كَلَامًا كَثِيرًا مُرَدَّدًا مُعَادًا مُخَلِّطًا). فَمَا تَقُولَانِ؟»

أَلَا تَكْفَانِ عَنْ هَذَا الْعَبَثِ (الْهَزْلِ)؟ أَلَا تَتَمَانَانِ، أَيُّهَا التَّرْتَارَانِ؟»
فَصَدَعَ السَّنَجَابَانِ بِمَا أَمَرَا، وَنَامَا إِلَى الصَّبَاحِ، وَاشْتَدَّ شَوْقُهُمَا إِلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ، فَظَلَا يَحْلُمَانِ — طَوْلَ لَيْلِهِمَا — أَحْلَامًا سَارَةً مَبْهَجَةً سَعِيدَةً.

(٥) عَلَى صِيَاكِ الْغُرْبَانِ

ثُمَّ اسْتَيْقِظَا عَلَى صِيَاكِ الْغُرْبَانِ الَّتِي تَقْطُنُ أَعَالِي الْأَشْجَارِ فِي الْغَابَةِ، بِجَوَارِهِمَا. فَفَقَزَا مَسْرُورَيْنِ، وَقَدِ اسْتَعَادَا نَشَاطَهُمَا، وَظَلًّا يُنْظَفَانِ فِرَاءَهُمَا وَوَجْهَيْهِمَا وَمَخَالِبَهُمَا. ثُمَّ تَحَفَّزَا (تَهَيَّأَا وَنَهَضَا) لِلْخُرُوجِ.

فَصَاخَتْ بِهِمَا أُمُّهُمَا تُنَادِيهِمَا: أَنْ اصْبِرَا قَلِيلًا، حَتَّى تُفْطِرَا مَعِي. فَقَالَا لَهَا: «كَلَّا. لَا حَاجَةَ بِنَا الْآنَ إِلَى جُورِ الزَّانِ، فَقَدْ مَلَلْنَاهُ (ضَجَرْنَا بِهِ وَسَتَمْنَاهُ)، يَا أُمَاهُ. وَاعْتَزَمْنَا أَنْ نَطْعَمَ (نَأْكُلَ) شَيْئًا خَيْرًا مِنْهُ وَأَشْهَى».

(٦) فِي مُنْتَصَفِ النَّهَارِ

ثُمَّ خَرَجَ «الْقَرْقَذَانُ» وَ«الْقَرْقَذُونُ» وَظَلًّا يَجُوسَانِ خِلَالَ الْغَابَةِ، حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ. وَقَدْ أُعْجِبَ «الْقَرْقَذُونُ» بِتِلْكَ النُّزْهَةِ الْبَدِيعَةِ إِعْجَابًا شَدِيدًا، وَشَكَرَ لِأَخِيهِ اقْتِرَاحَهُ الطَّرِيفِ. وَكَانَ «الْقَرْقَذَانُ» «شُجَاعَ الْقَلْبِ — كَمَا قُلْنَا — لَا يَخْشَى شَيْئًا، وَقَدْ كَادَتْ شَجَاعَتُهُ تُهْلِكُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَهُ وَأَنْقَذَهُ (نَجَّاهُ وَخَلَّصَهُ)، بَعْدَ أَنْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ الْمَحَقَّقِ».

(٧) فِي جُحْرِ «الْقَاقِمِ»

ثُمَّ صَمَتَتْ (سَكَتَتْ) «أُمُّ رَاشِدٍ» قَلِيلًا، وَاسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: «لَقَدْ رَأَى «الْقَرْقَذَانُ» حَيَوَانًا شَرِيرًا، اسْمُهُ: «الْقَاقِمُ»، وَهُوَ يَدْخُلُ جُحْرَهُ. وَلَمْ يَكُنِ «الْقَرْقَذَانُ» يَعْلَمُ أَنَّ «الْقَاقِمَ» عَدُوٌّ خَطِرٌ مَرْهُوبُ الْبَاسِ (مَخُوفُ الشَّدَّةِ، مَخْشِيُّ الْعُنْفِ)؛ فَاسْتَحَفَّ (اسْتَهَانَ) بِهِ «الْقَرْقَذَانُ» وَنَهَاةَ أَخُوهُ «الْقَرْقَذُونُ» عَنِ الْمُكَابَرَةِ، وَحَذَرَهُ عَاقِبَةَ التَّغْرِيرِ وَالْمُجَازَفَةِ (خَوْفُهُ نَتِيجَةُ الْمُخَاطَرَةِ)، فَلَمْ يَسْتَمِعْ إِلَى نُصْحِهِ.

(٨) السَّنَجَابَانِ وَ«الْقَاقِمُ»

وَذَهَبَ «الْقَرَقَذَانُ» إِلَى جُحْرِ «الْقَاقِمِ»، وَضَرَبَهُ بِذَيْلِهِ؛ فَخَرَجَ «الْقَاقِمُ» مِنْ جُحْرِهِ، وَأَنْشَبَ أَنْيَابَهُ (أَدْخَلَ أَسْنَانَهُ الْحَادَّةَ) فِي جِسْمِ «الْقَرَقَذَانِ». فَلَمَّا رَأَى «الْقَرَقَذَانُ» أَنَّ خَصْمَهُ قَوِيٌّ الْبَأْسُ أَتَقَنَ بِالْهَلَاكِ. وَلَكِنَّهُ قَوَى مِنْ عَزْمِهِ، وَضَاعَفَ مِنْ بَأْسِهِ (قُوَّتِهِ) وَأَنْشَبَ أَنْيَابَهُ فِي رَقَبَةِ عَدُوِّهِ.

فَاشْتَدَّ غَيْظُ «الْقَاقِمِ» مِنْهُ، وَحَمِيَ الْعِرَاكُ (اشْتَدَّ النِّزَاعُ) بَيْنَهُمَا وَرَأَى «الْقَرَقَذُونُ» أَنَّ أَخَاهُ سَيُفَارِقُ الْحَيَاةَ، بَعْدَ لَحَظَاتٍ يَسِيرَةٍ، فَأَسْرَعَ إِلَى نَجْدَتِهِ، وَأَنْشَبَ فِي جِسْمِ «الْقَاقِمِ» مَخَالِبَهُ.



(٩) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

نَبَاحُ «ابْنِ وَازِعٍ»

وَتَحَفَّزَ «الْقَاقِمُ» (اسْتَوْفَزَ وَتَهَيَّأَ لِلْوُتُوبِ) وَاسْتَعَدَّ لِلْفَتْكِ بِالسَّنَجَابَيْنِ، وَكَادَ يَنْمُ لَهُ مَا أَرَادَ، لَوْ لَمْ تَتَدَارَكُهُمَا عِنَايَةُ اللَّهِ وَلُطْفُهُ؛ فَقَدْ سَمِعَ «الْقَاقِمُ» نُبَاحَ كَلْبٍ، فَارْتَاعَ (خَافَ)، وَأَسْلَمَ سُوقَهُ لِلْفِرَارِ (أَطْلَقَ أَرْجُلَهُ لِلْهَرَبِ). وَنَجَا السَّنَجَابَانِ مِنَ الْخَطَرِ الدَّاهِمِ (الْوَقْعِ)، وَأَسْرَعَا — مِنْ قُورِهِمَا — عَائِدَيْنِ إِلَى الشَّجَرَةِ. وَلَمْ يَنْسَيَا ذَلِكَ الْيَوْمَ طَوْلَ حَيَاتِهِمَا. وَقَدْ نَدِمَا عَلَى مُخَالَفَةِ أُمَّهُمَا، وَاعْتَزَمَا أَلَّا يَعْصِيَا لَهَا أَمْرًا بَعْدَ ذَلِكَ.

وَلَمَّا انْتَهَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» مِنْ قِصَّةِ السَّنَجَابِيِّنَ، دَهَشَ السَّنَجَابِيُّ، وَأَعْجَبُوا بِحُسْنِ حَدِيثِهَا إِعْجَابًا شَدِيدًا.

ثُمَّ قَالَ «فُنُرْعَةُ»: «الْبَيْتِي (أَقْعِدِي) مَعَنَا — يَا أُمُّ رَاشِدٍ — حَتَّى يَسِيلَ الْجَلِيدُ الْجَامِدُ؛ فَتَذْهَبِي مَعَنَا لِزِيَارَةِ أَشْجَارِ الشُّوَحِ. وَلِتَكُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنَا مُؤْتَسِّوْنَ بِكَ، فَاتَّخِذِي مِنْ عُسْنَا بَيْتًا لِكَ، وَلَا تَضْجَرِي بِالْإِقَامَةِ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا يَا «أَخْتِ يَرْبُوعَ».

فَقَالَ «سَاطِعُ»: «نَعَمْ يَا بِنْتَهُ عَمِّ، وَنَحْنُ بِكَ جِدُّ مَسْرُورِينَ، فَالْبَيْتِي (امْكُثِي) مَعَنَا مَشْكُورَةً، وَلَا تَفَارِقِينَا؛ فَلَيْسَ أَحَبُّ مِنْ أَحَادِيثِكَ وَأَسْمَارِكَ الشَّائِقَةِ الْمُعْجِبَةِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «شُكْرًا لَكُمْ جَمِيعًا، عَلَى حَفَاوَتِكُمْ بِي (تَلَطُّفِكُمْ بِي وَمُبَالَغَتِكُمْ فِي إِكْرَامِي) — يَا أَبْنَاءَ عَمِّ — فَقَدْ أَوْلَيْتُمُونِي (أَعْطَيْتُمُونِي) مِنْهُ (فَضْلًا وَمَكْرَمَةً) عَظِيمَةً، وَغَمَرْتُمْ نَفْسِي أَنْسًا وَحُبُورًا، وَأَفْعَمْتُمْ (مَلَأْتُمْ قَلْبِي) فَرَحًا وَسُرُورًا، وَلَنْ أَنْسَى لَكُمْ هَذَا الْجَمِيلَ مَا حَيَّيْتُ!»

محفوظات

السَّنَجَابِ



قال «أبو الفرج الببغاء»:

«قد بَلَوْنَا الذِّكَاءَ فِي كُلِّ بَابٍ فَوَجَدْنَاهُ صَنْعَةَ السَّنَجَابِ
حَرَكَاتٍ تَأْبَى السُّكُونُ، وَالْحَا ظُ جِدَادُ، كَالنَّارِ فِي الْإِلْتِهَابِ
لَابَسًا جِلْدَةً، إِذَا لَاحَ، خِلْنَا هُ — بها — فِي مُزْرَةٍ مِنْ سَخَابِ
لَوْ غَدَا كُلُّ ذِي ذِكَاءٍ نَطُوقًا رَدَّ — فِي سَاعَةِ الْخِطَابِ — جَوَابِي»

الشرح

(١) «أبو الفرج عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمُخْزُومِيُّ» شَاعِرٌ مُجِيدٌ، وَقَدْ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ لِقَبَّ «الببغاء» لِلثَّغَةِ فِي لِسَانِهِ.

(٢) بَلَوْنَا: اخْتَبَرْنَا وَتَعَرَّفْنَا — فِي كُلِّ بَابٍ: فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ. صَنْعَةُ السَّنَجَابِ: يُرِيدُ صِفَتَهُ وَمَزِيَّتَهُ. وَالسَّنَجَابُ [بضم السين، وكسرهما]: حَيَوَانٌ قَارِضٌ مَتَسَلِقٌ، كَالْجُرَذِ وَالْفَأْرِ. وَهُوَ مُضْرِبُ الْمَثَلِ فِي رِشَاقَتِهِ وَسُرْعَتِهِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي أَمْتَازَ بِهَا فِي تَسَلُّقِ الْغُصُونِ. يَتَخَذُ مِنَ الشَّجَرِ دَارًا يَبْتَئِنُهَا، وَيَأْوِي إِلَيْهَا. وَجَسْمُهُ قَرِيبُ الشَّهْبِ مِنْ جِسْمِ الْأَرَانِبِ، لَا يَخْتَلِفُ عَنْهَا إِلَّا فِي قَصْرِ أَذْنِيهِ وَطُولِ آذَانِهَا، وَامْتِدَادِ ذِيلِهِ فِي الطُّولِ، وَتَقَاصُرِ أَذْيَالِهَا. وَهُوَ يَتَوَسَّدُ ذِيلَهُ الْكَثِيفَ الشَّعْرَ، إِذَا نَامَ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ. وَيَطْعَمُ الْفَوَاكِهَ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ ثَمَرَاتِ الْأَشْجَارِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأُخْرَى. وَلَكِنْ أَحَبَّ الْمَأْكَلِ إِلَيْهِ: ثِمَارُ أَشْجَارِ الْبَلُوطِ، كَمَا رَأَيْتَ مِنْ سِيَاقِ الْقِصَّةِ.

وَمَعْنَى الْبَيْتِ: أَنَّنَا قَدْ أَمْتَحَنَّا السَّنَجَابَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الذِّكَاءِ، فَرَأَيْنَا الذِّكَاءَ أَوَّلَ مَزَايَاهُ، وَأَخَصَّ خَصَائِصِهِ.

(٣) تَأْبَى السُّكُونُ: لَا تَرْضَى بِأَنْ تَهْدَأَ وَتَسْتَقِرَّ، مِنْ فَيْضِ النَّشَاطِ وَحُبِّ الْحَرَكَةِ. الْحَاظُ جِدَادُ: عُيُونٌ قَوِيَّةُ النَّظَرِ، حَادَّةُ الْبَصَرِ، شَدِيدَةُ التَّحْدِيقِ. وَمَعْنَى الْبَيْتِ: أَنَّ السَّنَجَابَ — لِفَرَطِ نَشَاطِهِ — لَا يَرْضَى أَنْ يَكْفَ عَنْ الْحَرَكَةِ قَطُّ، وَأَنَّ عَيْنَيْهِ الْحَادَّتِي الْبَصَرِ تَبْدُوَانِ (تَظْهَرَانِ) — لَمَنْ يَرَاهُ — كَأَنَّهُمَا جَمْرَتَانِ مُلْتَهَبَتَانِ.

(٤) الْجِلْدَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الْجِلْدِ — إِذَا لَاحَ: إِذَا ظَهَرَ. خِلْنَاهُ: ظَنَّنَاهُ وَحَسِبْنَاهُ — مُزْرَةٍ: يُرِيدُ ثَوْبًا ذَا أَرْزَارٍ.

سَخَاب: قِلَادَةٌ (عقد)، حَبَاتُهُ لَيْسَتْ مِنَ اللَّوْلُؤِ وَلَا مِنَ الْجَوَاهِرِ، بَلْ هِيَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ أَنْوَاعٍ مِنَ النَّبَاتِ كَالْقَرْنَفْلِ.

وَمَعْنَى الْبَيْتِ: أَنَّ الْجِلْدَةَ الَّتِي يَلْبَسُهَا السَّنْجَابُ تَلَوُّحُ لِعَيْنٍ مَنْ يَرَاهَا؛ فَيَحْسَبُهَا ثَوْبًا ذَا أَزْوَاجٍ، تَشْبَهُ حَبَاتِ الْعِقْدِ الْمُؤَلَّفِ مِنْ أَلْوَانِ النَّبَاتِ كَالْقَرْنَفْلِ.
(٥) لَوْ غَدَا: لَوْ أَصْبَحَ.

نَطَوَّقًا: فَصِيحَ اللِّسَانِ، سَرِيعَ النُّطْقِ.

سَاعَةَ الْخِطَابِ: حِينَ أَخَاطَبُهُ.

وَمَعْنَى الْبَيْتِ: لَوْ أَنَّ كُلَّ مَنْ وَهَبَ اللَّهُ لَهُ نِعْمَةَ الذِّكَاةِ، وَهَبَ لَهُ مَعَهَا نِعْمَةَ الْكَلَامِ — أَيْضًا — لَكَانَ السَّنْجَابُ مِنْ أَفْصَحِ الْفُصَحَاءِ، وَلَمَّا أَعْجَزَهُ التَّعْبِيرُ عَنْ غَرَضِهِ، وَالْإِجَابَةُ — فِي الْحَالِ — عَمَّا أَوْجَّهَ إِلَيْهِ مِنْ سُؤَالٍ.

